



جنون التوليب.. زهور الثراء والشهرة

براعم الأزهار

بلغت المنافسة أعلى مستوياتها خلال فصل الشتاء من سنة ١٦٣٦-١٦٣٧ عندما بلغ جنون التوليب ذروته. في ذلك الوقت انخرط آلاف الأشخاص داخل المقاطعات الهولندية المتحدة بمن في ذلك الاسكافيون والنجارون والبنائون والحطابون في التداول المحموم الذي كان يتم في كثير من الأحيان في الغرف الخلفية للحانات. بعض الأبطال كانت تتداول عليها أكثر من عشرة أباد في اليوم الواحد. لكن بعد وقت قصير وبين عشية وضحاها اختفت تجارة الحانة وفي بداية فبراير سنة ١٦٣٧ انهار سوق التوليب نتيجة عجز معظم المضاربين عن تحمل شراء حتى أرخص الأبطال واخترق الطلب وهوت الزهور إلى عشر قيمتها السابقة. وكانت النتيجة احتمال وقوع كارثة مالية للكثيرين وتعمقت الخلافات بشأن الديون لسنوات. لكن انهيار سوق زهور التوليب لم يقلل من شهية الهولنديين للزهور - في الفن على الأقل - وحافظت لوحات الزهرة الهولندية على شهرتها لقرون من الزمن الا ان عددا قليلا جدا منها قد بقي ولم يتلف منذ سنوات ١٦٣٠ عندما كانت الجمهورية الهولندية تعيش هوس التوليب وحدثت قطيعة في إنتاج لوحات الزهور في سنوات ١٦٣٠ و ١٦٤٠ بشكل لا يمكن تفسيره ربما الإفراط في الهوس بالتوليب ليضع سنوات على الأقل والذكريات المؤلمة التي عقب ذلك؛ كل ذلك كان ينفر جامعي الأعمال الفنية الهولندية الذين لم يستسيغوا فكرة تعليق لوحة زهرة التوليب على جدران منازلهم.

وخلال سنوات ١٦٣٠ انتشرت أخبار أقبال التوليب التي كانت تباع بالمزاد وبمبالغ خيالية فتدافع المزيد من المضاربين على السوق. وقد وثق المؤرخ مايك داش تعقيدات هذه السوق ونقاط ضعفه في كتابه «جنون التوليب: قصة الزهرة الأشهر في العالم والعواطف الاستثنائية التي أثارها» (١٩٩٩). كان من بين الصفات الغريبة في سوق التوليب بالقرن السابع عشر أن الناس لم يتاجروا بالزهور بحد ذاتها بل أقبال الأنواع النادرة والمرغوبة. والنتيجة كانت ظهور ما يمكن أن يطلق عليه اليوم سوق العقود الأجلة بدأت أزهار التوليب تستخدم كشكل من أشكال المال في حد ذاتها: في عام ١٦٣٣ بيعت بعض العقارات مقابل حفنات من أقبال التوليب.

ومع تداول قصص السابقين الذين جنوا أرباحا خيالية دون عناء بشراء أقبال التوليب وبيعها استوعب السوق المزيد من المضاربين - فارتفعت الأسعار بشكل جنوني. وفي عام ١٦٣٣ وصلت قيمة أحد الأبطال من نوع سمير أوغسطس ٥٥٠٠ فلورينة. وبحلول الشهر الأول من سنة ١٦٣٧ تضاعف هذا المبلغ تقريبا ليصل إلى ١٠ آلاف فلورينة وهو مبلغ كاف لإطعام عائلة هولندية كاملة لمدة نصف العمر أو كسوتها ولباؤها ويكفي أيضا لشراء أجمل المنازل المطلة على القناة الأكثر رونقا في أمستردام نقدا ومعه منزل آخر مجهز وحديقة مساحتها «٢٥م» في الوقت الذي شهدت فيه أسعار المنازل في المدينة ارتفاعا جنونيا على غرار كل الممتلكات في أي مكان من العالم.

والمهداة أكثر من الأزهار السليمة في الجمهورية الهولندية وتنافس علماء النباتات الهولنديون لتربية أصناف هجينة أكثر جمالا من أي وقت مضى كانت تعرف باسم «الأصناف». وشهد القرن السابع عشر تبادل أصناف الزهور ضمن شبكة متنامية من العلماء من الطبقة البورجوازية الذين قابضوا القصاصات والبذور وبصل الزهور داخل هولندا وخارجها. ثم نمت شبكة المبادلات وتحولت بدرجة أقل إلى شبكة صداقات وبدأ العلماء يحصلون على طلبات من أشخاص جدد في كل مرة وظهرت تجارة بصل الزهرة مقابل المال ولكن كلما نمت الشبكة وتوسعت أصبحت أكثر هشاشة بشكل متزايد.

المجموعة الغربية

تزامن الاهتمام المتزايد بالتوليب مع فترة ازدهار غير مسبوقة في تاريخ المقاطعات الهولندية التي هيمنت في القرن السابع عشر على التجارة العالمية وأصبحت أغنى دولة في أوروبا. وسرعان ما كون الأرستقراطيون والتجار الأثرياء وحتى الحرفيون من الطبقة الوسطى ثروة وفائضا من النقد للانفاق على الكماليات مثل الزهور باهظة الثمن. وفي سنة ١٦٢٣ قدم أحد الأثرياء مبلغ ١٢ ألف فلورينة «العملة الهولندية» - أي أكثر بكثير من قيمة فيلا فخمة في أمستردام - لأغراء أحد متذوقي وخبراء التوليب لتسليم ١٠ أقبال فقط من زهرة «سمير أوغسطس» الجميلة والنادرة جدا - والتي تعد زهرة التوليب الأشهر على الإطلاق. ورغم ذلك لم يكن المبلغ كافيا للتوصل إلى اتفاق.

غرار أمبرسيوس بوسخارت الأكبر؛ الزهور من أجل تلبية اهتمام جديد وعصري في زراعة البساتين الذي كان يشغل بال كبار علماء النبات والخبراء الأثرياء. كان من ضمنهم عالم النبات الرائد كارولوس كلوسوس الذي أنشأ حديقة نباتية كبيرة في جامعة ليدن خلال سنوات ١٥٩٠. وكان كلوسوس حديقة في ليدن أيضا زرع فيها مجموعته الخاصة من أزهار التوليب. في ذلك الوقت كانت أزهار التوليب تنشأ في السلاسل الجبلية «بامير وتيان شان» بآسيا الوسطى ويتم نقلها وزرعها على يد البستاني المهرة من الإمبراطورية العثمانية على مدى عقود كانت الزهور من السلع النادرة والغريبة أيضا على أوروبا الغربية لا يحصل عليها بسهولة وسرعان ما فتن بها علماء آخرون إلى جانب كلوسوس.

في سنواته الأخيرة كرس كلوسوس جل وقته لدراسة التوليب وكان متحمسا بالخصوص لفهم أسباب تشقق البصلة أحيانا من سنة إلى أخرى. وهذا يعني أنها وليس غير مفهوم ستتحول من أزهار أحادية اللون إلى أخرى بأنماط جميلة كالريش أو الشعلة التي تتضمن أكثر من درجة لون واحد. في وقت لاحق من ذلك بكثير خلال القرن التاسع عشر اكتشفت أسباب هذا التحول في الشكل «أو الخطوط البارزة على الأزهار» والتي تعود في الواقع إلى فيروس أصاب الأزهار. لكن قبل ذلك أي في القرن السابع عشر ظل هذا الأمر غامضا وهكذا أصبح التوليب المريض المزين بأنماط متميزة من بين الأزهار المفضلة

كانت قصة جنون التوليب الهولندي أو الهوس الخزامي من بين المؤشرات الأولى للفقاعة الاقتصادية التي شهدتها أوروبا في القرن السابع عشر. في ذلك الوقت بدأ الرسام الفلمنكي جان بروغل الأكبر تجربة رائعة؛ بتصوير مجموعة من الزهور في اناء من الزجاج. تضمنت إحدى الصور بتقنية الزيت على النحاس التي تسهم في إبراز قوة الضوء وكثافة الأشكال؛ تشكيلة رائعة من أزهار النرجس والأقحوان وأزهار مختلفة أخرى تشايفت في مزهرية صغيرة فخلقت رذاذا ريفيا من الألوان. وفي الجزء العلوي من التركيبة زهرتان دائريتان متفتحتان وناعمتان كفاكهة ناضجة تسحران العين. الأولى وردية باهتة والثانية مزيج مخطط وعجيب من الأصفر والأحمر وكلاهما من زهر التوليب. وفي مناسبات عديدة رسم الفنانون بهولندا أنواعا متعددة من الزهور ولكن في زمن الجمهورية الهولندية في القرن السابع عشر اشتهر التوليب بشكل خاص لهذا السبب ظهر ما سمي بعصر «هوس التوليب» بعد أن تبادل المضاربون بصل الزهرة بمبالغ مالية خيالية قبل أن ينهار السوق كليا ودون سابق انذار. ومنذ تلك الفترة مثل هوس التوليب الإشارة الأولى للفقاعة الاقتصادية.

أصل المشكلة

عندما كان الرسام الهولندي بيتر بروغل مهتما برسم الطبيعة بين سنتي ١٦٠٨ و ١٦١٠ كانت الفقاعة لا تزال على بعد عقود من الانفجار. رسم بروغل ومعاصروه المتخصصون على